ظاهرة العَذْل في شعر حاتم الطائي

د. علي أبو زيد*

ملخص

تكرر في الشعر الجاهلي حديث الشعراء عن (**عاذلة لائمة**) لهم على ما يقومون به من أفعال وتصرفات، وحاولوا من خلال ذلك التعبير عن بعض القيم الأخلاقية والاجتماعية التي يفخر بها العربي بأسلوب غير مباشر ؛ من خلال اختلاق حوار بين الشاعر وعاذلته يبيّن فيه قيمة هذه المفخرة وإصراره على فعلها والمبالغة في ذلك.

وتتناول هذه الدراسة **ظاهرة العذل في شعر حاتم الطائي،** فقد برزت فيه بوضوح ؛ وفي عدد غير قليل من نصوصه، وبصور مختلفة، ودار العذل في شعره كله حول موضوع الكرم وإنفاق المال كسباً للحمد والثناء والذكر الحسن.

وأشارت هذه الدراسة إلى ظاهرة العذل في الشعر الجاهلي، ثم رصدتها في شعر حاتم، وبينت الألفاظ التي استخدمها (كالعذل واللوم والكشح والوشاية واللحي).

ثم فصّلت الحديث عن أركان العذل الصريح والعذل الخفي، وتحدثت عن صورهما من خلال الشعر والأمثلة المناسبة، ثم بينت أن العاذل هو امرأة في الغالب، وقد يكون امرأتين أو جماعة. أما موضوع العذل فقد خلص في شعر حاتم للكرم وقيمته.

وخلصت الدراسة إلى محاولة تعليل هذه الظاهرة في شعر حاتم، ومناقشة بعض الآراء فيها.

* قسم اللغة العربية وآدابها- كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق.

تمهيد :

يُعد العذل في الشعر الجاهلي إطاراً عاماً لفهم ظاهرة العذل في شعر حاتم الطائي ووضعها في السياق الأدبي المناسب، ولذلك يحسن بنا أن نوجز الحديث عنه ليكون ذلك معيناً لنا على إيضاح الظاهرة في شعر حاتم.

ومن المعروف أن أساليب الشعراء الجاهليين ووسائلهم في التعبير عما في نفوسهم ؛ لإبراز القيم والأحاسيس والمشاعر التي يرغبون في بثها ونقلها إلى الآخرين قد تعددت، فمالوا إلى المباشرة حيناً، وإلى المواربة والالتفاف على المعنى حيناً آخر، واستعانوا بالصور، والتراكيب، والألفاظ، وما إلى ذلك مما هو معروف من طرائق التعبير عن المعاني، وتفاوتت المقدرة بينهم على استعمال هذه الوسائل، خلقاً وإبداعاً، ولذلك اختلفت درجات شعرهم ومراتب شاعريتهم، على أن المعاني التي عبّروا عنها تكاد تكون واحدة، أو متشابهة – في موضوعات الشعر – كما أن مصادر صورهم، ومناهل أساليبهم، متقاربة، إن لم تكن واحدة.

ومن الظواهر المثيرة لانتباه دارس الشعر الجاهلي ظاهرة العذل، فكثيراً ما نجد الشاعر يتوقف عند اعتراض من يعذله ويلومه على أمر قام به، أو تصرف اعتاد أن يكرره ؛ غير ملتفت إلى ما يؤول إليه أمره فيما يستقبل من حياته. وأكثر ما يكون العذل واللوم في أمور هي مما يعتز به العربي عامة من مكارم الأخلاق، والخصال الحميدة، والقيم النبيلة في عرف مجتمعه، والشاعر لا يُعذل حقيقةً على فِعْلها، بل على الإفراط والمبالغة فيها، فالجود يفقر والإقدام قتال، كما قال المتنبي :(١)

لولا المشقةُ ساد الناس كلهم   الجودُ يفقر والإقدامُ قتال

ولما كان الأمر كذلك التمس الشاعر لنفسه مخرجاً للتعبير عما يعتلج في صدره، وعن منزلة تلك القيم في نفسه ؛ من خلال خلق ما يشبه الحوار بينه وبين من يعذله على أمر ما، ثم يسترسل في الحديث عنه، وسرد موقفه وقناعته، متخذاً من هذا العذل محرضاً له للتعبير عن ذلك وتسويغ فعله.

فمن الأمور التي أشار الشعراء إليها، وبينوا لعذالهم رأيهم فيها مثلاً الكرم وإنفاق المال في ذلك كما قال حاتم الطائي : (٢)

مهلاً نوارُ أقلّي اللوم والعذلا   ولا تقولي لشيء فات : ما فعلا
ولا تقولي لمالٍ كنتُ مهلكَه :   مهلاً، وإن كنتُ أعطي الجنَّ والخبلا

ثم يقول :

لا تعذليني على مالٍ وصلتُ به   رحماً، وخيرُ سبيل المال ما وصلا

كما أشاروا إلى عذلهم على الجرأة والإقدام وكثرة المشاركة في الحروب. قال عروة ابن الورد : (٣)

أرى أم حسانَ الغداةَ تلومني   تخوفني الأعداء والنفسُ أخوَف
تقول سليمى لو أقمتَ لسَرَّنا   ولم تدر أني للمُقام أطوّف

ومثله ما تحدث عنه السفاح التغلبي مخاطباً زوجه : (٤)

تقول ابنةُ العَمري مالك لا نرى   لك الدهرَ إلا همّ حرب تَسَعَّر
عتادك منها لأمَة تُبَّعيّة   وأبيضُ من ماء الحديد ومِغفر

وربما كان العذل على ما يرتضيه الشاعر من إنفاق للمال والوقت في اللهو والتلذذ بالحياة وشرب الخمر، فهذا طرفة بن العبد يكرّر شرب الخمر حتى لا يكون هناك وقتُ صحو يسمع فيه عذل العاذلات، وكأنه معهن في سباق دائم :

فلولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبقُ العاذلاتِ بشَرْبةٍ كميت متى ما تعل بالماء تزبد (٥)

أما عمرو بن كلثوم فيرى العذل في مثل هذا الأمر ضرباً من السفه :

بكرت تعذلني وسط الحلال سفهاً بنت ثوير بن هلال

بكرت تعذلني في أن رأت إبلي نهباً لشَرْب وفضال

لا تلوميني فإني متلفٌ كلَّ ما تحوي يميني وشمالي (٦)

وقد يكون العذل على السعي في طلب المال والرزق ذلك السعي الذي يحمل المرء على مفارقة الأهل والوطن، يقول عروة : (٧)

أقلّي عليّ اللومَ يا ابنة منذر ونامي وإن لم تشتهي النوم فاسهري..

ذريني أطوّف في البلاد لعلني أخلّيك أو أغنيك عن سوء محضر

وثمة أمورٌ أخرى يستطيع المرء أن يقف عليها في أشعارهم، مما أشاروا فيها إلى عذل الآخرين لهم عليها.

وغلب على أسلوب الشعراء كلمات محددة تصرفوا فيها كالعذل، واللوم، ثم الكشح، واللحي، والوشاية، على أن ثمة فروقاً دقيقة في المعنى بين هذه الألفاظ، وكان الشعراء يدركون ذلك، ولكنها في النتيجة توصل إلى الغاية التي يريدها الشاعر، فما هي إلا وسيلة من الوسائل ينفذ منها إلى التعبير الشعوري المقصود بالإبداع الشعري نفسه.

ولم يقف الشعراء عند صيغة واحدة لهذه الألفاظ، بل تصرفوا فيها، واستعانوا بمشتقاتها وبصيغها المختلفة، وجاؤوا بها على الإفراد والتثنية والجمع، والتأنيث والتذكير، وإن كنا نلحظ غلبة (**العذل واللوم**) وصيغة **الإفراد والتأنيث** و ما سوى ذلك.

وأستطيع الإشارة هنا إلى أن المرأة هي من يعذل الشاعر في الأغلب، ولا سيما في القيم والأخلاق التي سلفت الإشارة إليها، وما جاء على لسان الرجل من عذل كان قليلاً جداً، ومنه قول تأبط شراً :

يا من لعذّالة خذّالة أشِبٍ حَرَّق باللوم جلدي أيَّ تَحراق (٨)

وقول طرفة بن العبد : (٩)

فما لي أراني وابن عمي مالكاً متى أدنُ منه ينْأ عني ويبعد

يلومُ وما أدري علامَ يلومني كما لامني في الحي قُرْط بن أعْبَد

فالمرأة سواءٌ أكانت زوجاً أم أختاً أم أماً – هي من يعذل الشاعر على الإفراط فيما هو عليه من قيم وعادات، وأحسب أنها في عذلها كله كانت تمثل صوت العقل الواعي والواقعي الكامن في قرارة نفس الشاعر " وكأن الشاعر يتخذ الزوجة ذريعة لينقل الحوار الداخلي القائم في نفسه بين الطمع بالمال واقتفاء أثر الآخرين، وبين التمرد والتوسل به للخير والمحبة، فحاتم يخاطب زوجته ظاهراً، لكنه في الواقع يضمر حديثاً يجري بينه وبين نفسه في فهم معنى الحياة وأشيائها "(١٠)، والشاعر يخالف هذا الصوت لا ازدراءً (بالمرأة) العاذل وانتقاصاً من شأنها، ولكن مبالغة فيما هو فيه، وإصراراً منه عليه، لأنه يرى

في ذلك معنى جديداً يضاف إلى ما يفتخر به من مكارم الأخلاق، ومن القيم والخصال الحميدة، فاستعان بهذه الوسيلة غير المباشرة للتعبير عما يريد. ولذلك ربما عبر عن صحة رأي العاذلة وعجزه عن سماعه كما قال شاعر متأخر هو ابن زريق :

لا تعذليه فإن العذلَ يولِعه　　　قد قلتِ حقاً ولكن ليس يسمعه

جاوزتِ في نصحه حداً أضرّ به　　　من حيث قدّرتِ أن النصح ينفعه

ولعل وقفة متأنية عند هذه الظاهرة تبرز لنا جانباً مهماً يوضح منزلة المرأة عند الجاهلي، وسيكون هذا مجال بحثٍ آخر إن شاء الله.

ولعل من نافلة القول أن أشير إلى تطور فكرة (**العاذل**) في الشعر العربي، وتطور دلالتها عند الشعراء في العصور اللاحقة، ولاسيما عند شعراء التصوف. (١١)

ولا تتسع هذه الصفحات للحديث عن ظاهرة العذل في الشعر الجاهلي عامة (١٢)، ولذلك سأكتفي بالوقوف عليها في شعر حاتم الطائي، فهو واحد من الشعراء الجاهليين الذين برزت في شعرهم، بل انحصرت في قيمة الجود والكرم لولا بيتان ليم فيهما على حب النوار. وهذا البحث خطوة أولى لدراسة العذل في الشعر الجاهلي دراسة مستفيضة ومتأنية. وقد اقتضى البحث الاستعانة بالأمثلة الشعرية في غير موضع للدلالة على الجوانب المختلفة المستفاد منها.

العذل في شعر حاتم :

تبرز ظاهرة العذل واللوم في شعر حاتم واضحة، ويتبين لقارئ شعره أنه اتكأ عليها، واتخذها وسيلة للحديث عن قيمة الكرم التي بنى عليها معظم شعره، فنوّع في سبل التعبير عنها، وكان الحديث عن العاذلة واحداً من هذه السبل، إذ نجد ذلك في نحو عشرين نصاً في ديوانه.

وتبني ظاهرة العذل على أركان أربعة : **العاذل**، و**المعذول**، و**اللفظ المستخدم**، و**موضوع العذل**. فإن صرّح الشاعر باستخدام لفظ (العذل) أو ما في معناه من ألفاظ ومشتقات كان العذل صريحاً، وإلا فهو عذل خفي مقدّر تشي معاني أبياته به.

أولاً : العذل الصريح :

وهو الغالب على هذه الظاهرة في شعر حاتم، ونستطيع الوقوف على مقوماته من خلال الأمثلة التالية :

١ – **العاذل** : وهو امرأة في شعره كله، إلا في بيت واحد ستأتي الإشارة إليه. وهذه العاذلة :

أ – **امرأة واحدة** : من ذلك قوله :(١٣)

و**عاذلة** هبت بليل تلومني　　　وقد غاب عيّوق الثريّا فعَرَّدا

تلوم على إعطائيَ المال ضلة　　　إذا ضنّ بالمال البخيلُ وصرّدا

تقول : ألا أمسك عليك فإنني　　　أرى المال عند الممسكين مُعبّدا

ذريني ومالي، إن مالك وافر　　　وكل امرئ جار على ما تعودا

أعاذلَ لا آلـوك إلا خليقـتي فلا تجعلي فوقي لسانك مبـردا

وهي قطعة في خمسة عشر بيتاً، الأبيات هذه مطلعها، وتدور معانيها حول المعنى المفهوم من المثال.

وقوله :(١٤)

أعـاذلَ إن المـال غير مخـلّد وإن الغنـى عـاريَّـةٌ فتزودِ

وكم من جوادٍ يُفسد اليومَ جودَه وساوسُ قد ذكّرْنه الفقرَ في غد

وهي ثلاثة أبيات فقط يؤكد فيها أنه ورث الكرم والإصرار على الإنفاق كابراً عن كابر.

وقوله : (١٥)

يا رُب **عاذلـةٍ** لامت فقلتُ لها : إنَّ على اللـه مما ننفق الخلفا

لما رأتنـيَ أعطي المـالَ طالبَـه فلا أبالي تلاداً كان أو طرَفـا

عدّت سماحيَ تبذيراً ولستُ أرى ما يجلبُ الحمد تبذيراً ولاسرفا

وليس مع هذه الأبيات غيرها.

ب – **امرأتان** : وهذه الصيغة وردت مرة واحدة في ديوانه، وهي في قوله : (١٦)

وعاذلتـين هبّتا بعد هجعةٍ تلومـان متـلافاً مفيداً ملوّمـا

تلومان لمّا غوّر النجم ضـلّةً فتىً لا يرى الإتلاف في الحمد مغرما

والبيتان من قصيدة أبياتها اثنان وأربعون بيتاً، بدأها بوصف الطلل، ثم وصف صاحبته دون أن يسميها في أحد عشر بيتاً، وهجم بعد ذلك على موضوعه من خلال الإشارة إلى هاتين العاذلتين، واستغرق ذلك الرد عليهما في الأبيات التالية، فذكر بعض أخلاقه، وتحدث عن بعض القيم والخصال الحميدة ومكارم الأخلاق التي تكسب الحمد والثناء.

جـ – **جماعة** : وهذه الصيغة وردت في شعره مرتين :

الأولى بلفظ (**العاذلات**) في قوله : (١٧)

فقِدماً عصيتُ **العاذلاتِ** وسلطت على مصطفى مالي أناملي العشر

وهذا البيت جاء ختاماً لقصيدة تقع في ثمانية عشر بيتاً بدأها ببيت وحيد في الهجران، ثم انبرى يخاطب زوجه ماوية ويبين لها منزلة المال عنده، وغايته، وبعض أخلاقه الأخرى.

واللفظ الثاني الدال على الجماعة هو لفظ (**الوشاة**) في قوله :(١٨)

صحا القلبُ عن سلمى وعن أم عامر وكنتُ أراني عنهما غيرَ صابـر

ووشّت **وشاةٌ** بيننـا وتقـاذفت نوىً غَربةٌ من بعد طول التجاور

وهما مطلع قصيدة في ستة عشر بيتاً دخل بعدهما في موضوع الكرم والحديث عن أخلاقه في قرى الضيف، واسترسل في وصف طعامه، ثم ختم القصيدة بأبيات تبوح بالفراق وألمه.

٢ – **المعذول** : وهو الشاعر في المواضع كلها كما يتضح لنا من الأمثلة.

٣ – **ألفاظ العذل** : ورد في شعر حاتم خمسة ألفاظ : (العذل – اللوم – الكشح – الوشاية – اللحي).

أما لفظ (**الوشاية**) فورد مرة واحدة في شعره بلفظ الجماعة (الوشاة) مع الفعل، ولاحظنا من خلال الشاهد المتقدم له أن هذا اللفظ خرج عن العذل وغايته الكامنة في أنه وسيلة للاسترسال في الحديث عن كرمه، فالشاعر أشار إلى الوشاة الذين أوقعوا بينه وبين من أحب، ولم يخرج عن ذلك. ومعلوم أن

الوشاية يراد منها الإيقاع بين الناس، وقد تحقق ذلك لهم في بيت حاتم، أما العاذل فهو حريص بالضرورة على مصلحة المعذول.

وأما (**الكاشح**) فظهر مرة واحدة أيضاً في شعره، وهو في قوله:(١٩)

ولكنني ممـا أقـول وإن زَرَى   عليّ بذاك (**الكاشح**) المتقفر
كلوا ما به خضراً وصفراً ويانعاً   هنيأ، وخير النفع ذو لا يكدَّر

وبيت الشاهد في مقطعة عدتها أربعة عشر بيتاً ترفع من شأن الكريم وتزري بالبخل والبخلاء.

وثمة فرق دقيق في المعنى بين (العذل) و (الكشح)، فالكشح يتضمن البغضاء، وكان حاتم على بيّنة من ذلك، فالكاشح في الأبيات يلومه، وينكر أفعاله، وهو مبغض له متتبّع لما يفعل، ويحاول أن يثنيه عن أخلاقه، إلا أن حاتماً لم يأبه لـه، وخالفه، وأعلن عن أخلاقه وطبعه في إنفاق المال، وبذلك اتخذ منه وسيلة أخرى للتعبير عن خصاله تصب في السياق الذي يُستفاد من فكرة العذل.

كذلك (**اللحي**) فإنه ورد مرة واحدة، وقصد به نفسه مقارناً رأيه برأي العاذلة (زوجه) في قوله :(٢٠)

وإلا فكفي بعض لومك واجعلي   إلى رأي من (**تلحين**) رأيك مسندا

ولما قصد الشاعر نفسه باللحي فإن هذا اللفظ قد خرج عن غاية (العذل) كما ظهرت في شعره.

واقترن (**اللوم**) بـ (**العذل**) في كثير من المواضع كما يتضح من الأمثلة المستخدمة في البحث.

٤ ـ موضوع العذل :

سلفت الإشارة في مقدمة هذا البحث إلى أن العذل أواللوم يوجه إلى الشاعر على أمور مختلفة يقوم بها، ويبالغ فيها، كأنْ يُعذل على كرمه، أو على إقدامه وشجاعته، أو على لهوه والإكثار من شرب الخمر، أو حب امرأة ... وما إلى ذلك.

بيدَ أن الناظر في شعر حاتم الطائي يجد أن العذل كان على **كرمه** وكثرة إنفاقه، وإهلاك ماله في العطاء دون حساب، وأنه لا يردّ طالباً، ولا يُمسك من ماله شيئاً وإن ذهب ماله كله وافتقر عياله. ورأيناه يخرج من الحديث عن العذل واللوم إلى بيان حقيقة ما هو عليه من جود وكرم، ونظرته إلى وظيفة المال في هذه الحياة، والغاية التي يؤديها المال ويعيش عليها حاتم :

وعاذلتين هبتا بعد هجعة   تلومان متلافاً مفيداً ملوَّما
تلومان لما غوّر النجم ضلـة   فتى لا يرى الإتلاف في الحمد مغرما
ألا لا تلوماني على ما تقدما   كفى بصروف الدهر للمرء مُحكِما
فإنكما لا ما مضى تدركانه   ولست على ما فاتني متندما

ويقول أيضاً :(٢١)

وعاذلـة قامت عليَّ تلومني   كأني إذا أعطيت مالي أضيمها
أعاذل إن الجود ليس بمهلكي   ولا مخلد النفس الشحيحة لُومُها
وتُذكر أخلاق الفتى، وعظامه   مغيبـة في اللحد بـالٍ رميمها
ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه   يدعه ويغلبه على النفس خيمها

ولما كان اللوم على غير الكرم وإنفاق المال في ما يُحمد ذكرُه لم يسمعه من زوجه، ولا من المرأة عامة، بل من الناس اللائمين دون تحديد، فقد ليم على حبه النوار، فقال :(٢٢)

من لامني على النـوار فليتـه   رآها معي يوم الكثيب فينظر

بذي أُشُر كالأقحوان اجتنيتـه غداة الشروق والسحابةُ تمطرُ

ولم يأته اللوم ههنا من مشفق عليه كالمرأة عامة أو الزوج، لأن موضوع اللوم في أمر غير الجود وإتلاف المال كرماً، بل هو في حب المرأة، ومثل هذا الأمر ليس من القيم التي يفاخر بها العربي.

ولما ارتفعت نبرة العذل واللوم، وتجاوزت الحد المقبول ووصلت إلى (الكشح)، وهو يحمل فيما يحمل معنى البغض أيضاً، لم تصدر هذه النبرة عن المرأة، بل عن رجل لم يسمّه، وهو يعلم أنه يتتبعه، ولا يريد له الخير :

ولكنني ممـا أقـول وإن زرى علـيّ بذاك الكاشح المتقفر

كلوا ما به خُضراً وصفراً ويانعا هنيا وخير النفـع ذو لا يكدَّر

فكل المعاني التي عرضها حاتم على أنه ليم عليها، وله فيها عذر وعقيدة في رأيه، تندرج تحت موضوع الكرم، أي أن حاتماً مال إلى أسلوب العذل في شعره لينفذ منه إلى الحديث عن أبرز قيمة عُرف بها وهي (**الجود والكرم**) لأنها من مفاخر العرب ومن خصالهم الحميدة، بل أحسب أن الشاعر هنا أراد أن يخرج من الحديث عن الكرم إلى بيان قيمة هذا الخُلق ومنزلته عند القوم أولاً وفي نفسه هو ثانياً.

وليس جديداً أن نشير إلى أن الحديث عن هذه المفخرة أتى على معظم شعر حاتم، ولكن الجديد ألا تكون ظاهرة العذل في شعره كله إلا على ما هو عليه من إنفاق للمال.

ثانياً : العذل الخفي المقدَّر :

وهو الذي لا يصرح فيه الشاعر بلفظ من ألفاظ العاذل، بل يُقدَّر في الأبيات أنها ردّ على (عاذل) مقدر، لأنها جاءت على الأسلوب ذاته، في إنشاء ما يشبه الحوار، وربما صرّح الشاعر باسم المرأة وخاطبها، دون أن يشير إلى أنها عاذلة، ولكن مضمون الأبيات يبوح بأنها عاذلة لائمة، وأنه يرد على ما سمع من عذلها، ويحاول إقناعها بصحة ما هو عليه.

وهذا الأسلوب من العذل دون الأول كثرة، ولكنه موجود، فمنه قول حاتم :(٢٣)

وقائلة : أهلكت في الجود ما لنا ونفسَك، حتى ضرّ نفسك جودُها

فقلت دعيني إنمـا تلك عـادة لكـل كريـم عـادة يستعيدهـا

وهما بيتان وحيدان. وقوله :(٢٤)

تنادي إلى جاراتها إن حاتماً أراه لعمري بعدنـا قـد تغيّرا

تغيّرتُ، إني غير آت لريبةٍ ولا قائل يوماً لذي العرف منكَرا

وهما من قصيدة بدأها بالفراق والحنين إلى الوطن، ثم تحدث عن عفته وأخلاقه وشجاعته وكرمه.

وقوله يخاطب زوجه :(٢٥)

أماويّ قد طال التجنب والهجر وقد عذرتني في طِلابكم العُـذْر

أماويَّ إن المال غـاد ورائـح ويبقى من المال الأحـاديث والذكرُ

أماويَّ إني لا أقـول لسائـل إذا جاء يومـاً حلّ في مالنـا نَـزْر

أماويَّ إمـا مـانـعٌ فمبينٌ وإمـا عطـاء لا ينهنهـهُ الزجـر

أماويَّ ما يغني الثـراء عن الفتى إذا حشرجت نفسٌ وضاق بها الصدرُ

وهي مطلع قصيدة تقع في ثمانية عشر بيتاً، يتحدث فيها عن صور كرمه وعطائه وبعض خصاله الأخرى الحميدة.

وثمة صور أخرى تُلتَمسُ فيها ظاهرة العذل، وهي ذات صلة وثيقة بما تقدم، ومما ورد منها في شعر حاتم :

١ – **طلب التخفيف من اللوم** : فقد ينصرف الشاعر عن العذل الخفي، ومباشرة الحديث والرد على العاذلة إلى مخاطبتها والطلب إليها أن تكف عن لومه أو تخفف منه، فبعض اللوم يكفيه، وما هي عليه من مداومة العذل لا يجديها نفعاً، ولا يردعه عمّا هو عليه، لأنه يتصرف بما يراه صواباً قد فطر عليه وعاش لأجله، وليس له أن يحيد عنه، ولا لأحد أن يستدرك أمراً قد انقضى، من ذلك قول حاتم :(٢٦)

مهلاً نوارُ **أقلّي اللوم والعذلا** ولا تقولي لشيء فات : ما فعلا

ولا تقولي لمالٍ كنتُ مهلكَه مهلاً وإن كنت أعطي الجنّ والخبلا

وقوله :(٢٧)

لا تعذلي يا ميّ واستأهلي إن الذي أنفقت من ماليه

وهو بيت مفرد في ديوانه.

٢ – **طلب اللوم** : ربما التمس الشاعر لنفسه أسلوباً في العذل مغايراً لما سلف، فالمرأة العاذلة ماثلة في نفسه، وهو يعلم أن حوارها أحد أساليبه في بيان بعض خصاله وأخلاقه وتعليل إفراطه فيها، ولذلك وجدناه في إحدى مقطعاته يتحدث عن شيمه قائلاً :(٢٨)

وما من شيمتي شتم ابن عمي وما أنا مخلف من يرتجيني

سأمنحه على العلات حتى أرى ماويَّ ألا يشتكيني

وكِلْمة حاسد من غير جُرْمٍ سمعت فقلتُ مُرّي فانفذيني

ثم يختم أبياته مخاطباً زوجه أنه لا يحيد عن هذه الأخلاق ، ولا يقبل لوماً فيها، وإن كان من لوم فليوجّه إليه بعيداً عن هذه الشيم مجانباً لها، أما وهو على ما هو عليه فلا لوم ولا عذل :

فلوميني إذا لم أقر ضيفي وأكرم مكرمي، وأُهِن مهيني

ومثل هذا القول يكشف عن هاجس يرافق الشاعر عند كل تصرف يقوم به، وهو صوت العاذلة، أو صوت العقل الخفي وحديث النفس ومغالبتهما، ولهذا رأيناه يبادر بالحديث عن شيمه التي يراها صحيحة لا يحيد عنها، وما يكون من لوم فعلى التقصير بالوفاء بها.

العذل في بنية القصيدة :

يستطيع الباحث المتتبع لظاهرة العذل في شعر حاتم أن يخلص إلى أنها وردت في أبيات مفردة، وفي مقطعات، أو في بيت واحد من مقطّعة، كما أنها وردت في قصائد، أو في مقدمتها، أو ضمنها، والأمثلة السالفة في البحث تدل على ذلك.وربما انبنى على ظاهرة العذل موضوع القصيدة كلها كما لاحظنا في قصيدته التي مطلعها :

أتعرف أطلالاً ونؤياً مهدما كخطك في رقٍّ كتاباً منمنماً

فبعد مقدمته الطللية التي جرّته إلى الغزل ؛ يخاطب (عاذلتين) تلومانه، ويقوم بالرد عليهما، واتخذ من هذا الرد والتعليل سبيلاً للتعبير عن كثير من أخلاقه وصفاته الحميدة وتصرفاته التي تكسبه الذكر الحسن ثلاثين بيتاً. وخرج من ذلك للحديث عن نظرته إلى نوعين من الصعاليك : الصعلوك (الفقير) الذي يرضى أن يعيش على فضلات الآخرين، ولا همة له، وبين الفقير ذي النفس الأبية، والهمة العالية،

والطموح، والعزيمة التي لا تلين، وهو بذلك لا يحيد عن المعاني التي وردت في أبيات عروة بن الورد التي منها :(٢٩)

لحى الله صعلوكاً إذا جنّ ليله مصافي المشاش آلفاً كل مجزر

وفي قصيدته التي يطلب فيها إلى قومه الغزو والقتال يبدؤها بالعذل في تسعة أبيات، ثم يخرج منه إلى مخاطبة قومه :

فليت شعري، وليتٌ غير مدركةٍ لأي حالٍ بها أضحى بنو سعلا

أبـلغ بني ثُـعلٍ عني مغلغلـة جهد الرسالة لا مَحكاً ولا بُطُلا

فيجعل العذل مقدمة لغرضه في القصيدة، على أننا نستطيع أن نلمح الرابط المعنوي بينهما.

أما قصيدته :

أماوي قد طال التجنب والهجر وقد عذرتني في طِلابكمُ العذر

فقد خلصت لغرض العذل.

ويتضح للباحث أن هذه الظاهرة تقوم في الغالب على الحوار أو ما هو قريب منه، أي أننا نلحظ مخاطبة الشاعر ورده على العاذلة، مما يوحي ببدء كلام منها، فينشأ بذلك الحوار الذي يستغله الشاعر ليسهب في الرد وفي إبقاء العاذلة في حالة التلقي ليفرغ ما في نفسه من مكنون الأفكار والقيم.

العذل والمرأة :

ويلاحظ الدارس أن العذل في ديوان حاتم جاء من (**المرأة**)، وهي في شعره كله (**زوجه**) المحبة المشفقة، ولذلك فإن عذلها له ليس كرهاً، ولا يحمل في طياته البغضاء، ولا يعني أنها تريد أن تجعله يُقلع عن هذا الطبع والخُلُق، ولكنها تحاول أن تنبّهه على ما هو عليه من مبالغة تصل إلى حد الإفراط الذي سيودي في النهاية بكل ما يملك، ويحيله إلى فقير معدم، وعندها لن يبقى له – إن استمر على هذه الحال – ما يعينه على الجود والعطاء ؛ ولا على ما ينفقه على أهل بيته. والشاعر هنا يدرك يقيناً ما ترمي إليه (العاذلة - الزوج) من خوف وإشفاق وحرص على استمرار الحياة، لذلك لم يقسُ في رده عليها، ولم يعنّفها، ولم ير في ذلك سفهاً أو خطلاً في الرأي كما يقول أحد الباحثين : " وقد رأينا الشاعر يبرر مسلكه إزاء العاذلين، ويقرر تهافت رأي العاذل أو العاذلة وبعده عن الجادة. فالذات والآخرون قطبان لجدل مستمر، لأن كل سلوك يقبل الحكم عليه استحساناً أو استهجاناً "(٣٠)، وإن كنا نجد أحياناً عند بعض الشعراء ما يؤيد هذا الزعم كقول عمرو بن كلثوم :(٣١)

بكرت تعذلني وسْط الحلال سفهاً بنتُ ثوير بن هلال

إلا أن هذا لم يرد عند حاتم، بل رأيناه يميل إلى إقناعها وتعليل تصرفاته، وفي محاولة التعليل ما يوحي بحسن استماع الشاعر إلى رأي (العاذلة – الزوج) ؛ ومحاولة الخروج من موقع اللوم الظاهر فيه إلى دائرة الحمد والثناء، وهذا واضح في معظم مواضع العذل في شعر حاتم، كقوله مثلاً في مقطعة من ثلاثة أبيات :(٣٢)

أعـاذلَ إن المـال غير مخلـَّد وإن الغـنى عـاريَّـةٌ فتــزود

وكم من جواد يفسد اليومَ جودَه وساوسُ قد ذكّرنْه الفقرَ في غد

وكم ليم آبائي فما كفّ جودَهم مـلامٌ، ومن أيديهم خُلقت يـدي

وكقوله أيضاً في بيتين مفردين :(٣٣)

وقائلةٍ أهلكت في الجود مالنا ونفسَك حتى ضرّ نفسَك جودُها
فقلت : دعيني إنما تلك عادة لكل كريم عـادة يستعيدها

وأقسى ما رأيناه في رد حاتم على العاذلة طلبه إليها أن تكف عن لومه، أو تخفف منه، في قوله :(٣٤)

لا تعذلي يـا ميّ واستأهلـي إن الـذي أنفقت من مـاليـه

وقوله :

مهلاً نوار أقلي اللوم والعذلا ولا تقولي لشيء فات ما فعلا

ويبدو لي بداء يقرب من اليقين أن المرأة العاذلة استخدمت أسلوباً ووسيلة للوصول إلى المعنى، وليس بالضرورة أن يكون هذا العذل كله قد صدر عنها، وإنما لجأ الشاعر الجاهلي إلى هذا الأسلوب ليعدد مفاخره، ويبيّن رأيه في سبب المبالغة والإفراط دون أن يباشر السامع، أو يخاطبه مواجهة، وكأنه يحتال على القول احتيالاً من خلال اختلاق هذا الحوار الضمني المتوهم بينه وبين المرأة، ولعل ما في طبيعة المرأة من حرص وإشفاق وخوف، يعينه على ذلك. وإن كان افتراض وجود العاذلة والعذل أمراً صحيحاً، فإن افتراض المبالغة فيه والإكثار منه أمر متوقع أيضاً.

وقد كان الشاعر يلحظ أن الموت قادم لا محال، وأن المرء إلى فناءٍ مهما طال به الأجل، وعلى اللبيب أن يتنبه على ذلك ليستغل حياته بما يكسبه الحمد الذي ربما يكون وسيلة من وسائل المرء للسعي نحو الخلود أو دوام الذكر بعد الموت. وهذا الأمر يحتاج إلى وقفة أخرى مع هذه الظاهرة عند الشعراء الجاهليين عامة.

آراء في العذل :

يرى الدكتور حسني عبد الجليل أنه " ربما كان لسيطرة نموذج العاذلة جذور أسطورية يقول الدكتور نصرت عبد الرحمن : يرد في الشعر الجاهلي التشبيب بأم أوفى وأم عمرو وأم معبد وأم جندب، وتبدو هذه الأسماء رموزاً لسيدة الحكمة ولا تخاطب عادة إلا في الأمر الجلل الذي يحتاج إلى التؤدة والصبر " ثم يعقب الباحث بقوله : " وكأن هذه المرأة التي يحاورها الشاعر تمثل رمزاً لتلك المعبودة القديمة التي تحاسب الشاعر على تصرفاته وتلومه عليها ".(٣٥)

ولست أرى لهذه الظاهرة جذوراً أسطورية، ولا أظنها تحتمل ذلك، وإن كنا لا نريد مناقشة رأي نصرت عبد الرحمن هنا (٣٦)، فإننا نستطيع بيسرٍ اكتشاف أن حسني عبد الجليل أقحم رأيه إقحاماً دون أي مسوّغ، ليستفيد منه في رمزية بعض أسماء النساء في الشعر الجاهلي، فأساء إليه من حيث لا يدري. **هذه واحدة**.

وأما الثانية : فإنه لا يصح إسقاط هذا الرمز على (العاذلة)، لأمور :

أولها : أن العاذلة في كثير من الأحيان هي زوجة الشاعر ويسميها باسمها الحقيقي، ولا علاقة لاسمها عندئذ بالرمز. وهذه هي حالها عند حاتم كما رأينا.

وثانيها : أن الشاعر ربما لا يذكر اسماً مطلقاً، ويكتفي بصفة العذل، - وقد مرت أمثلة عليه من شعر حاتم – ولا ندري عندها أي اسم نقدر لهذه الصفة حتى نلتمس رمزاً له.

وثالثها : أن الشاعر قد يحيد عن تسمية العاذلة وصفتها، كما رأينا في العذل الخفي المقدَّر في قول حاتم :

وقائلة أهلكت في الجود مـالنـا ونفسَك حتى ضرّ نفسك جودها

وكالذي نجده في قول دريد بن الصمة :(٣٧)

ذريني أطوّف في البـلاد لعلـني ألاقـي بإثرٍ ثُلَّةً من محـاربِ

وفي قول عروة بن الورد :(٣٨)

تقول ألا أقصر من الغزو، واشتكى لهـا القولَ طَـرفٌ أحور العين دامعُ

وعلى هذا الأسلوب قول أبي نواس العباسي :(٣٩)

تقول التي عن بيتها خفّ مركبي عزيـز علينـا أن نراك تسـير

أما دون مصـر للغنى متطلـب بلى إن أسبـاب الغنى لكثـير

ورابعها : أن العاذل قد يكون رجلاً كما في قول تأبط شراً :

يا من لعذّالـة خذّالـة أشب حرق باللوم جلدي أي تحـراق

ويجانب الصواب أيضاً الزعم أن "مواجهة هذه العاذلة تمثل من بعض النواحي مواجهة لتلك الآلهة التي ظلت صورتها باقية في وجدان الشاعر، وفي وعيه ولا وعيه "(٤٠). إذ يصعب على العقل إيجاد رابط بين ظاهرة العذل وهذا الزعم، ومتابعة هذه الظاهرة لا ترشح بذلك ولا تعين عليه. وأحسب أن الدكتور حسني نفسه لم يكن مقتنعاً بما أورد؛ لذلك حاول أن يخلص إلى نتيجة تجتمع فيها كل الاحتمالات على ما فيها من تناقض فقال: " ومع اعترافنا بأن هذا الجدل بين العاذلة والشعراء الجاهليين يتضمن أبعاداً أسطورية، ويعكس مواقف ذاتية، ويعكس جدلاً بين الشاعر وصوته المضمر، أو بينه وبين الأنا الأعلى أو الأنا الأسفل، فإن ذلك لا يجب أن يكون إلغاء لواقعية الموقف "(٤١).

ويستطيع المتتبع لظاهرة العذل في الشعر الجاهلي – وشعر حاتم منه – أن يخلص إلى نتيجة مهمة تكمن في أن المرأة العاذلة – في سياق هذه الظاهرة – كانت دوماً مشفقة على الشاعر، حريصة عليه، ترجو له الخير والتعقّل في تصرفاته، وكأنها صوت العقل الواعي، أو هاجس نفس الشاعر الحذرة التي تحاول عقلنة تصرفاته، فهو إذا يُنزل المرأة منزلة العاقل الخبير الحكيم المدبر، ويلتمس بذلك لها منزلة حميدة، ولكنه مع ذلك يخالفها، ويأبى إلا الاستمرار فيما هو فيه، وهذه المخالفة ليست لأن العاذل الناصح امرأة لا يُسمع منها، ولا مكانة لها عنده، ولا سلطان لها عليه، بل لأن سلطانها يقصر

دون هذه المعاني والقيم النبيلة ومحاولة ثنيه عنها، وهو بذلك يخرج من المعنى المألوف لما يتحدث عنه من القيم إلى معنى جديد يضاف إليه يوحي بالمبالغة في هذه القيم، ويُرضي طموحه، ويروي تعطشه إلى الثناء والذكر الحسن والتفوّق على نظرائه، فخلق العرب عامة الكرم، ولكنّ حاتماً يُذكر في مقدمتهم مثلاً.

وإذا سلم لي هذا الفهم، فإن متابعته في الشعر الجاهلي قد تصل بنا إلى استكشاف صورة جديدة لمنزلة المرأة في العصر الجاهلي، ومكانتها عند الجاهليين، فهي شريك عاقل، ومحاور حكيم، ولها الحق في اللوم والعذل، وعلى الرجل أن يعلل لها ويقنعها بما هو فاعل.

الحواشي

(١) المتنبي، ديوانه : ٢٨٧/٣.

(٢) الطائي، حاتم، ديوانه : ١٩١ – ١٩٢.

(٣) ابن الورد، عروة، ديوانه : ٥٠.

(٤) أبو زيد، علي، شعراء تغلب في الجاهلية : ١٧٠/٢. وانظر ديوان عنترة : ٢٩٩.

(٥) الأنباري، محمد بن القاسم، شرح القصائد السبع الطوال : ١٩٤.

(٦) ابن كلثوم، عمرو، ديوانه : ٦٥.

(٧) ابن الورد، عروة، ديوانه : ٤١ – ٤٢.

(٨) تأبط شراً، ديوانه : ١٤٠.

(٩) الأنباري، محمد بن القاسم، شرح القصائد السبع الطوال : ٢٠٢.

(١٠) موسوعة الشعر العربي (الشعر الجاهلي) : ٤٩٢/١.

(١١) يقوم الأستاذ عباس يوسف الحداد بإعداد بحث عن العاذل في الشعر الصوفي لنيل درجة الدكتوراة من جامعة القاهرة.

(١٢) هناك دراسة مختصرة بعنوان (العذل في الشعر الجاهلي) للدكتور حسني عبد الجليل، ولنا عليها مآخذ كثيرة.

(١٣) الطائي، حاتم، ديوانه : ٢١٧.

(١٤) نفسه : ٢٤٥.

(١٥) نفسه : ٢٦٧.

(١٦) نفسه : ٢٢١.

(١٧) نفسه : ٢٠٣.

(١٨) نفسه : ١٨٨.

(١٩) نفسه : ٢٦٠.

(٢٠) نفسه : ٢١٨.

(٢١) نفسه : ٢٨٨ – ٢٨٩.

(٢٢) نفسه : ٢٦٠.

(٢٣) نفسه : ١٧٩.

(٢٤) نفسه : ٢٥٦.

(٢٥) نفسه : ١٩٩.

(٢٦) نفسه : ١٩١.

(٢٧) نفسه : ٢٧٧.

(٢٨) نفسه : ١٥٢ – ١٥٣.

(٢٩) ديوان عنترة : ٤٦.

(٣٠) يوسف، حسني عبد الجليل، العذل في الشعر الجاهلي : ٨١ – ٨٢.

(٣١) ديوانه : ٦٥.
(٣٢) ديوانه : ٢٤٥.
(٣٣) نفسه : ١٧٩.
(٣٤) نفسه : ٢٧٧.
(٣٥) العذل في الشعر الجاهلي : ١٣.
(٣٦) عبد الرحمن، نصرت، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي : ١٤٦.
(٣٧) ابن الصمة، دريد، ديوانه : ٢٩.
(٣٨) ابن الورد، عروة، ديوانه : ٨٢.
(٣٩) أبو نواس، ديوانه : ٤٨١.
(٤٠) العذل في الشعر الجاهلي : ١٣.
(٤١) نفسه : ١٣ – ١٤.

المصادر والمراجع

- الأنباري، محمد بن القاسم : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات – تحقيق: عبد السلام هارون – دار المعارف – القاهرة – ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م – ط٤.
- تأبط شراً، ديوانه – تحقيق : علي ذو الفقار شاكر – دار الغرب الإسلامي – بيروت – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م – ط١.
- حاوي، خليل، وغيره : موسوعة الشعر العربي (الشعر الجاهلي) – شركة خياط – بيروت – ١٩٧٤م.
- أبو زيد، علي : شعراء تغلب في الجاهلية أخبارهم وأشعارهم – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م – ط١.
- ابن شداد، عنترة : ديوانه – تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي – المكتب الإسلامي – بيروت – ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م – ط٢.
- ابن الصمة، دريد : ديوانه – جمع وتحقيق محمد خير البقاعي – دار قتيبة – دمشق- ١٤٠١هـ – ١٩٨١م – ط١.
- الطائي، حاتم :ديوان شعره – دراسة وتحقيق د. عادل سليمان جمال – مكتبة الخانجي – القاهرة – ١٤١١هـ – ١٩٩٠م – ط٢.

- عبد الرحمن، نصرت : الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث – مكتبة الأقصى – عمان – ١٩٧٦م.
- ابن كلثوم، عمرو : ديوان عمرو بن كلثوم – صنعة : د. علي أبو زيد – دار سعد الدين – دمشق – ١٤١٢هـ – ١٩٩١م – ط١.
- المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري – تحقيق : السقا والأبياري وشلبي – دار المعرفة – بيروت – (بلا تاريخ).
- أبو نواس : ديوان أبي نواس، تحقيق : أحمد عبد المجيد الغزالي – دار الكتاب العربي – بيروت – (بلا تاريخ).
- ابن الورد، عروة : شعر عروة بن الورد – تحقيق د. محمد فؤاد نعناع – مكتبة العروبة – الكويت – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م – ط١.
- يوسف، حسني عبد الجليل – العذل في الشعر الجاهلي – مكتبة الآداب – مصر – ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق ٢٠٠١/٩/٢٠.